بسم الله الرحمن الرحيم

المقدّمة

الحمد لله الذي حَجَّت الألبابَ بدائعُ حِكَمه، وأنارت العقول عظائمُ حُجَجه، وقطعت الأطماعَ دلائلُ صُنْعه. أحمده وحده لا شريك له، ربّ المغارب والمشارق، الذي يقذف بالحقّ على الباطل فيدمغه فإذا هو زاهق، والصلاة والسلام الأتمّان الأكملان على أفصح الناس حجّة ودليلاً، وأوضحهم مَحّجة وسبيلاً؛ نبيِّنا محمد، وعلى آله وصحبه أئمّة القول وحُسن الفَعال، الواقفين مع الحِجاج والاستدلال، النائين عن اللِّجاج وسوء الخِصال.

أمّا بعد :

فالقرآن العظيم كنز عامر بالفرائد، كريم كلّما استثير أَعطى، فيه عجائب لا تحدّ، ولا يخلق جديدها على كثرة الردّ! وقد تميّز في مخاطباته بأساليب شتّى، متفنِّنة في ضروب الهداية، ودروب الإقناع؛ لاختلاف مشارب الناس، وتفاوت مداركهم، وتباين مقاصدهم. فأضحى له منهج بديع في الحِجاج، يرِده الناس، ويستَقون منه صافيًا نقيًّا على مدى الدهر. «قال بعض المتكلِّمين: أفنيتُ عمري في الكلام أطلب الدليل، وأنا لا أزداد إلاَّ بعدًا عن الدليل، فرجعتُ إلى القرآن أتدبّره، وأتفكّر فيه، وإذا أنا بالدليل حقًّا معي، وأنا لا أشعر به!»[1].

ويدور القرآن مع الزمن، فكلما امتدّت إليه القلوب والأفهام لم يُصْفِرْها، أو يردّها حسيرة ظمأى، بل هو الرّواء، يعطى لكلٍّ شِرْبَه، وبحسب الدِّلاء يكون العطاء. قال ابن القيِّم (٧٥١هـ): «إذا تأمَّلتَ القرآن، وتدبّرتَه، وأعرتَه فكرًا وافيًا، اطَّلعتَ فيه من أسرار المناظرات، وتقرير الحجج الصحيحة، وإبطال الشُّبَه الفاسدة، وذكر النقض، والفرق،

(١) مفتاح دار السعادة : ٤٥٧/١ .

والمعارضة، والمنع، على ما يَشفي، ويَكفي لمن بصَّره الله، وأنعم عليه بفهم كتابه»[١]، من هنا نشأت أهمِّيـــَّة الموضوع، وأسباب اختياره.

أسباب اختيار الموضوع:

١. ورود منهل من مناهل بلاغة القرآن، يمثّل الوجه الأصيل في إعجازه دراســة وتحليلاً، والرغبة في نيــل شرف التدبُّــر في آيات الله، وخدمة كتــابه الذي حــوى أفانين شتَّى من الاحتجاج العقليّ، سيقت فيها الأدلّة والبراهين التي تُبنى من كلِّيـــَّات المعلومات العقليـــَّة والحسِّـــيَّة، بطرق فريدة، وأساليب فذَّةٍ عديــدة، بليغة الحجّة، واضحة المحجّـــة.

٢. مقاومة التحدِّيات التي تبثّها موجات التغريب، والافتتانِ بأساليب الحوار عند المناطقة والمتكلِّمين؛ بحثًا عن سبلٍ لتطوير الذات والحوار مع الآخر، وذلك بتنمية القدرة على الحوار والإقناع عبر تدبُّر أسرار الحِجاج القرآنيِّ، وإبراز خصائصه البلاغيَّة، ووظائفه الحيويّة.

٣. إبراز المنــزلة الرفيعة التي يحتلُّها أســلوب الاحتجاج من البــلاغة العربيَّة، فقد ذكــر أبو هلال العسكريّ (٣٩٥هـــ) في حدّ البلاغة أنّها: «دنوّ المأخذ، وقــرْع الحجّــة، وقليل من كثير»[٢].

٤. بعْث المصطلحات البلاغيّة المتشابهة المتعلِّقة بالاحتجاج العقليّ التي بقيت في بطون الكتب زمــنًا.

٥. الكشف عن بلاغة الفرقان العظيم في موضوعات حِجاجه، فهو لا يعتمد على العقل ويترك الوجدان، بل يخاطبهما معًا، ويحرص على توفير المتع الوجدانيَّة في سَوق الحجج العقليـــّة، فيجمع بلاغة الإقناع والإمتاع؛ فطريقته هي الطريقة المثلى لمن أراد أن يكون داعيًا إلى الله على بصيرة بالحكمة والموعظة الحسنة.

٦. جِدّة الموضوع: حيث لم تُبحث أساليبه بدراسة بلاغيّة تطبيقيّة متخصِّـــصة مستفيضة، فالدراسات البلاغيّة في الاحتجاج العقــليّ –حسب ما اطلعــت عليه–

---

(١) بدائع الفوائد : ٦٢٩ .

(٢) كتاب الصناعتين : ٢٢ .

نـــادرة؛ اطّلعت على بعضها، ووجدتها مختلفة في المنحى والغرض[1]؛ فلم تقصد إلى جمع مصطلحاته، وتأصيلها، والكشف عن أواصر القربى التي تربط الاحتجاج بكثير من فنون المعاني والبيان والبديع، لتتجلّى بنيته اللغويّة البلاغيّة المتلاحمة.

هذه الدواعي مجتمعة، أكّدت قيمة العناية بهذا الموضوع الجليل، فانبعث لندائها همّـــي، واستجابت رغبتي، واجتمع عزمي، فاتّكلت على الله في خوض غماره، وسمّيته **بلاغة الاحتجاج العقليّ في القرآن الكريم**.

أهداف الموضوع:

١. استشراف جانب مهمّ من عظمة الكتاب العزيز ينبثق من بلاغته الفريدة.
٢. الكشف عن أسلوب الاحتجاج في القرآن العظيم، ورصد الأساليب المتعلّقة به.
٣. إبراز بلاغة القرآن في الجمع بين الإقناع والإمتاع بمخاطبة العقل والوجدان.
٤. استنباط طريقة القرآن المعجِزة في سَوق الحجج والبراهين، بما تنطوي عليه من أسرار عجيبة تجلّي بلاغة الخطاب الإلهيّ.

الدراسات السابقة:

عثرت على دراسات قريبة من الموضوع في مجال البلاغة، والأسلوبيّة، وعلوم القرآن:

١. الدراسات البلاغيّة:

منها دراستان وصفيتان:

أُولاهما: رسالة من كلّيـــّة الآداب، جامعة الإسكندريَّة بعنوان: (المذهـــب الكلاميّ في الدرس البلاغيّ، عام ١٩٨٥م).

وهي رسالة ماجستير مرّ عليها خمسة وعشرون عامًا تقريبًا، وكان مصبّ اهتمامهـــا مناقشة مصطلح المذهب الكلاميّ بين مؤيِّديه ومعارضيه، وألمحت إلى مصطلح الاحتجـــاج العقليّ، وعرضت بعض المصطلحات البلاغيّة التي انبثقت من المذهب الكلاميّ عرضًا سريعًا،

(١) سأتحدث عنها بإذن الله في الدراسات السابقة.

دون تفصيل في أقسامه، أو تصنيف للشواهد وفقها، أو تحليل بلاغيٍّ مفصَّل، وأوردت نماذجَ تطبيقيّة على شواهد من القرآن والشعر والنثر.

والثانية: رسالة من جامعة أمّ القرى بعنوان: (الاحتجاج العقليّ والمعنى البلاغيّ: دراسة وصفيّة) للباحث ناصر السعيديّ، عام ١٤٢٥/١٤٢٦هـ.

وهي على كونها رسالة دكتوراه، وحديثة في الزمن، وقريبة من الموضوع، إلاّ أنّها وسابقتها تختلفان عن دراستي هذه من النواحي التالية:

١. **النوع**: كلتاهما دراسة وصفيّة لم تطل الوقوف أمام الشواهد، أمّا دراستي فبلاغيَّة تحليليّة، تطيل الوقوف عند الشواهد بالتحليل مع تلمُّس النواحي الجماليّة في دقائق الأسلوب.

٢. **مجال الدراسة وطبيعة الشواهد**: تنوّعت الشواهد في الرسالة الأُولى ما بين القرآن إلى الشعر والنثر، وجاءت شواهد المذهب الكلاميّ في القرآن في فصل واحد في حوالي أربعين صفحة، صُنِّفت فيه الآيات وفق موضوعات القرآن، لا فنونه البلاغيّة. بينما انصبّت شواهد الرسالة الأخرى على الأدب العربيّ، مع إيراد شواهد قرآنيّة قليلة، ربما لا تتجاوز العشرين شاهدًا، في حين اختصّت دراستي هذه بأنها بلاغيّة تحليليّة في القرآن الكريم، ووصلت شواهدها من القرآن إلى أكثر من مائتي شاهد.

٣. **المنهج**: عرضتِ الرسالة الأولى من أساليب الاحتجاج التي ذكرتها هذه الدراسة؛ القياس، والاستدلال بالتمثيل، والتعليل، والقول بالموجب، والمناقضة، والتسليم، والإسجال، دون موازنة بين التعريفات، أو زيادة على ما قاله البلاغيُّون فيها. وتناولت الأخرى من أساليب الاحتجاج التي سأتناولها الاحتجاج بالتمثيل، والاحتجاج بالتعليل، وأشارت عرَضًا إلى بعض المصطلحات التي صنفتُ الآيات على أساسها، وتناولتُها بالشرح والتحليل والموازنة والاستنباط.

٤. **الخطة ومفرداتها**: تختلف خطة الدراستين –كما أشرت في المنهج– اختلافًا كلِّيًّا عن هذه الدراسة.

وهناك دراستان بلاغيَّتان مجالهما القرآن، لكنهما اختلفتا أيضًا في المنهج وطريقة التناول.

أُولاهما: رسالة من كلِّيـّة التربية في الرياض، بعنوان: (من بلاغة القـرآن الكـريم في مجادلة منكري البعث)، للباحثة بدرية العثمان، نشرت عام ١٤١٥هـ .

وهي رسالة ماجستير مرّ عليها خمس عشرة سنة، ولم تتعرّض لمصطلح الاحتجاج العقليّ، ولا المصطلحات القريبة منه سوى تجاهل العارف، وتناولت خصائص الأسلوب القرآنيّ بعامّة، ودرست آيات الجدل دراسة بلاغيّة للظواهر العامّة دون استكناه لمكوِّنات أسلوبه، والمصطلحات البلاغيّة القريبة منه، والموازنة بينها.

والثانية: كتاب بعنوان أساليب الإقناع في القرآن الكريم لابن عيسى باطاهر، ومع أنّ عنوانه يشمل القرآن الكريم كاملاً، إلاّ أنّ التطبيق اختصّ بسورة الفرقان.

٢. الدراسات الأسلوبيّة:

عثرت على دراستين أسلوبيّتين:

أولاهما: بعنوان: (الحِجاج في القرآن من خلال أهمّ خصائصه الأسلوبيّة) لعبد الله صولة، وهذه الدراسة على ما يظهر من موافقتها لموضوع هذا البحث ومجاله، إلاَّ أنها تختلف اختلافًا كلِّيًّا من حيث طريقة التناول، وخطّة البحث، فقد قامت على ثلاثة أبواب وفق المنهج الأسلوبيّ: في المعجم، والتركيب، والتصوير. فمسارها مختلف، كما أنها لم تتعرّض لأساليب الاحتجاج التي رصدها هذا البحث، وعرض تعريفاتها.

والدراسة الثانية: (الحِجاج في الشعر العربي القديم من الجاهليـّة إلى القرن الثاني الهجريّ: بنيته وأساليبه) للدكتورة سامية الدريديّ، وتختلف أيضًا في مجالها وطبيعتها عن هذا البحث؛ إذ اختصّت بالشعر، ومنحاها أسلوبيّ.

٣. الدراسات القرآنيـّة:

هناك دراسات في علوم القرآن -كما أسلفت- منها:

١. (مناهج الجدل في القرآن الكريم) لزاهر الألمعيّ، وهي رسالة دكتوراه في علوم القرآن نشرت قبل عام ١٣٩٩هـ.

٢. (البراهين في القرآن الكريم) لعليّ الشهري، وهي رسالة دكتوراه من كلِّيـَّة الدعوة وأصول الدين في جامعة أمّ القرى، عام ١٤١٥هـ.

وهما رسالتان رائدتان في بابهما –على ما أحسب–، ولكنهما تختلفان في الهدف، والخطّة، وطريقة التناول، والتحليل، رصدت كلّ منهما عددًا من أساليب الجدل، مع الاستشهاد على كلّ نوع بشاهد أو شاهدين، دون تحليل بلاغيّ؛ إذ ليس هو مجالهما.

ومع اختلاف تلك الجهود الطيّبة عن دراستي هذه إلاّ أنني أفدت منها في استكناه جوانب هذا الموضوع العميق، وفتح آفاق الفكر في طريق طويل سبقتني الصافنات الجياد إلى بعض أسراره، مذلّلة بعض عقباته، ولعلّ هذه الدراسة تكون استجابة للتوصيات العلميّة بمزيد من الدراسات التي تكتمل بها الصورة في موضوع الاحتجاج القرآنيّ.

وحرصت أن أضيف الجديد في هذه الدراسة لتمتاز بما يلي:

١. استقصاء أساليب الاحتجاج العقليّ في القرآن الكريم، فانفردت بأساليب لم تذكر في أيٍّ منها، ومن ذلك مجاراة الخصم، والإلجاء، والاستدراج، والسبر والتقسيم، وإخراج الممكن على الممتنع، والكلام المنصف، والاستدلال بالتعريف، والاستدلال بالتقابل.

٢. العناية بتحرير المصطلحات البلاغيّة، وجمع نفائسها من كتب الأصول والبلاغة، وعرضها ومناقشها في ضوء المنهج العلميّ، مع انتقاء ما يناسب قداسة القرآن، وصولاً إلى استنباط تعريفات جامعة مانعة، ترسم حدود كلٍّ منها وتميِّزه عمّا يقاربه، مع إبراز قيمتها البلاغيّة الحجاجيّة.

٣. تصنيف الشواهد وفق فنون الاحتجاج والاستدلال، مع استكناه لطائفها البيانيَّة التي ترتبط بالاحتجاج، وتبرز بلاغته.

٤. الكشف عن الأغراض البلاغيّة التي ترتبط بأساليب الاحتجاج، وتجلّي إيثار أيٍّ منها على الآخر، مع مراعاة المخاطَب والموضوع، حرصًا على إشراق الجانب الحيويّ في هذا الأسلوب بأنواعه المختلفة.

خطَّة البحث:

اقتضت طبيعة البحث أن ينتظم في تمهيد، وبابين، وخاتمة.

- **تكفَّل التمهيد بتجلية مفردات العنوان وفق مبحثين اثنين :**

– مفهوم الاحتجاج العقليّ، وأنواعه، والفرق بينه وبين الجدل .

– الاحتجاج العقليّ في الدرس البلاغيّ، وصلته بالدراسات القرآنيّة.

- **ثُمَّ توزَّعت أجزاء الموضوع على بابين أولهما تأصيليّ، والآخر استنباطيّ:**

اختصّ أوّلهما ببلاغة أساليب الاحتجاج العقليّ في القرآن، وحوى ثلاثة فصول :

–**الأول**: أساليب الاحتجاج المبنيّة على كلام المخاطَب، وجاء في خمسة مباحث هي: القول بالموجب، ومجاراة الخصم ، والإلجاء، والمناقضة، والإسجال.

–**الثاني**: أساليب الاحتجاج المبنيّة على مقدِّمات عقلية، وحوى ستة مباحث هي: الاستدراج، والتسليم، والسبر والتقسيم، وإخراج الممكن إلى الممتنع، وسَوق المعلوم مساق غيره، والكلام المُنصِف.

–**الثالث**: أساليب الاحتجاج بالاستدلال، وفيه ستة مباحث هي: الاستدلال بالتعريف، وبالتعليل، وبالتقابل، وبالقياس، وبالقصص، وبالتمثيل .

واستنبط الباب الآخر السمات البلاغيّة العامّة للاحتجاج العقليّ في القرآن، وجاء في أربعة فصول:

–**الأول**: السمات النظميّة، وقسّم ثلاثة مباحث: سمات في التركيب، وفي التصوير وفي التحسين.

–**الثاني**: السمات الموضوعيّة، وجاء في أربعة مباحث: مراعاة المخاطَب، ومراعاة الموضوع، وتصريف المعاني، ومراعاة الزمان والمكان.

–**الثالث**: دَرَجات الاحتجاج: وفيه ثلاثة مباحث: عرض القضيّة، والردّ، وردّ الردّ.

–**الرابع**: الأغراض البلاغيَّة، وشمل خمسة مباحث: التقرير، والإقناع، والإبطال، والتبكيت والإفحام، والتحدِّي.

- **وذُيِّلت الرسالة بعدئذ بخاتمة حوت خلاصة البحث، وأهمّ نتائجه، وتوصياته .**

- **تلتها الفهارس الفنِّـيَّة، وثبت المصادر والمراجع. وجاءت الفهارس على النحو التالي:** فهرس للآيات، وثانٍ للأحاديث، وثالث للشعر، وفهرسان للموضوعات أحدهما مفصَّل، والآخر مجمل.

المناهج العامَّة التي سار عليها البحث:

اعتمد الموضوع في رسم حدوده وأصوله على المناهج التالية:

١. المنهج الاستقرائيّ: باستقصاء أساليب الاحتجاج العقلي في البلاغة العربية.
٢. المنهج التصنيفيّ: بتصنيف الآيات وفقًا للظواهر الأسلوبية التي تنتمي إليها.
٣. المنهج الانتقائيّ: بانتقاء أوضح الشواهد، وأقربها دلالة على الموضوع.
٤. المنهج التاريخيّ في عرض المصطلحات قدر الإمكان؛ وخالفته في بعض المواضع وأشرت إليها في أماكنها.
٥. المنهج الوصفيّ التحليليّ: بمناقشة المصطلحات والتعريفات، وتحليل الآيات موضع الدراسة، واستنباط اللطائف والنكت التي تخللت ذلك.
٦. المنهج الاستنباطيّ: باستنباط تعريفات لأساليب الاحتجاج العقلي، واستنباط الظواهر الأسلوبية والسمات البلاغيّة العامّة للاحتجاج العقليّ في القرآن الكريم.

وكان منهجي في البحث ما يلي :

١. جمع المادة من مصدرها الأوّل القرآن الكريم بحصر ما أمكنني من آيات الاحتجاج، ثُمَّ انتقاء أقربها دلالة على الموضوع.

٢. الرجوع إلى ما تيسَّر من كتب البلاغة والأصول وعلوم القرآن لجمع ما يتعلَّق بأساليب الاحتجاج، والوقوف على بعض التعريفات والمسائل البلاغيَّة والتحليلات، ثم النظر في كتب التفسير بخاصَّة ذات النزعة البلاغيّة، وأسباب النزول، وكتب الحديث النبويِّ الشريف، وقليل من كتب النحو وإعراب القرآن والإعجاز بأنواعه من لغويّ وبلاغيّ وعلميّ، لتلمُّس النكات البيانيَّة الحجاجيّة، وتحرير ما قد يرد من أقوال حول الآيات موضع الدراسة.

٣. استهلال كلّ فصل بمدخل ذكرت فيه تعريفًا بموضوع الفصل ومباحثه، وما يتّصل

به، وقسّمت كلّ مبحث ثلاثة أقسام:

أوّلها: نظريّ عنونته بـ (توطئة) : أبرز فيه القضايا التي لا مناص من الوقوف عليها؛ لإضفاء الصِّبغة العلميَّة على التحليل، فأعرّف فيه بالمعنى الاصطلاحيّ لموضوع المبحث بعرض تعريفاته عند البلاغيِّين بخاصّة، فموضوع الاحتجاج بطبيعته يتردّد بين علماء البلاغة، والأصول، والمنطق، وعلوم القرآن، وتتشعّب مصطلحاته، ولبعضها في كلِّ علم مشرَب خاصٌّ، يَرِد عليه أهله ويَصدرون، وليس بمَلكي تتبّع تلك المصطلحات والتعريفات، ولو حاولت تقصِّي شروحها وتعليلاتها، لأبعدت النُّجعة، ووقعت في شرَك الإطالة؛ لذا صرفت اهتمامي بالدرجة الأولى إلى المصطلحات البلاغيّة، وما انتظم في سلكها، أو دار في فلكها؛ إلاّ إنِ احتجْت إلى غيرها في دعم المصطلح، عرّجت عليه مع الابتعاد قدر الإمكان عن التفريعات التي لا تخدم البلاغة، ولا تضيف جديدًا في تأصيل المصطلح من وجهتها، أو توسيع الآفاق في تحليل شواهده؛ لذا لم أورد التعريفات اللغويّة إلاّ عند الحاجة إليها في إضافة معنًى يفيد في رسم حدود أطمئن إليها لتحرير مصطلح أناقش فيه آراء العلماء، وأعتمده في تحليل الشواهد.

والقسم الثاني: تطبيقيّ عنونته بـ (تحليل الشواهد): أبدؤه بمقدِّمة أوجز فيها العناصر التي تتّسم بها شواهده؛ لإبراز خصوصيّة الأسلوب الحجاجيّ فيها، ثم أعرض الشواهد محلَّلة وَفق ترتيبها في المصحف، ولم أخالف هذا الترتيب إلاّ في بعض المواضع تبعًا لدواعي المعنى، أو استدعاء النظائر، وهو قليل، وأشرت إليه في مكانه.

والقسم الثالث: معياريّ حيويّ، عنونته بـ (القيمة البلاغيّة الحجاجيّة للأسلوب): أورده في نهاية كلِّ مبحث مسلِّطة الضوء فيه على الجانب الحيويّ للأسلوب الحجاجيّ موضع الدراسة بلفت الأنظار إلى قيمته البلاغيّة الحجاجيّة.

٤. الحرص على نقل كلام العلماء حسب تقدُّم أعصارهم، وتتبُّع ما أمكن من آرائهم، مع عزو الأقوال إلى قائليها، مبتعدة عن الألقاب التشريفيّة، وعبارات الترحّم؛ إذ ستفتح بابًا في البحث لكلِّ واحد من علمائنا الأجلاّء عن لقب يناسب عظم جهوده، وسموّ منزلته، مع اليقين التامّ بشرفهم، والاعتراف بجهودهم في نشر العلوم وتأصيلها، فبشعاع ضيائهم تبصّرنا، وباقتفاء واضح رسومهم تميَّزنا، "فما نحن فيهم إلاّ

كبقـــل في أصول نخل طِـــوال" [1]. رحمهم الله جميعًا، وجزاهم على ما قدّموا خير الجزاء!

٥. تدوين تواريخ الوفَـــيَات عند ذكر العَـــلَم أوَّل مرة في كلّ مبحث؛ لتتبُّع مراحل تطوّر الظواهر البلاغيّة، وهذا – في نظري – أولى من كتابة ترجمة تنـــوء بحملها حواشي البحث، ولعلَّـــها إلى أعمال التحقيق أقرب، أمَّا كتابة تاريخ الوفاة فوسط بين ترجمة العلم وتركها؛ إذ يسهل معه الرجوع إلى التراجم في مظانِّها.

٦. العناية بالشواهد سواء أكانت حديثًا نبويًّا أم شعرًا أم كلامًا منثـــورًا لأحد العلماء، مع توثيقها من أماكنها ومظانِّها، فخرّجت الأحاديث، و لم أورد منها إلاَّ الصحيح، ووثّقت الأقوال والأبيات من مصادرها المعتمَدة .

٧. الاقتصار في الحواشي على اسم الكتاب دون مؤلِّفه وبيانات الطبعة؛ اكتفاء بما فُصّل في ثبت المصادر والمراجع، إلاّ إن كان اسم الكتاب مشترِكًا بين أكثر من مؤلِّف فأميِّزه بمصنِّفه.

٨. الاعتماد على طبَعات موحّدة للمصادر والمراجع إلاَّ فيما تدعو إليه الحاجة من زيادة في التحقيق، أو ضبط، مع الإشارة إلى المواضع التي اختلفت فيها الطبعة.

٩. توثيق الآيات الواردة في البحث من مواضعها في القرآن في متن الرسالة تمييزًا لكلام الله، ثُمَّ تخفُّـــفًا من كثرة الحواشي.

١٠. دراسة الآيات على المنهج الوصفيِّ الاستنباطيّ، القائم على تحليل الآيات موضع الدراسة تحليلاً بيانيـــًّا نظميًّا يكشـــف عن أغراضـــها البلاغيـــّة، ومعانيـــها العميقة وفـــق ما رسمه عبد القاهر (٤٧١هـــ) بالنظر إلى الأساليب التي تتآزر لإبراز أساليب الحِجاج، وإشراقاتها البلاغيّة، مستحضِرة الغرض من سياقها، إن لزم الأمر .

١١. الاحتكام عند اشـــتجار الخلاف بين المفسِّرين، وتكاثُف الظلال حول جـــانب من الآية إلى النظر في الأدلّة والسياق، مع الاســـتعانة بكلام الأئمَّـــة الأثبـــات، وبقـــواعد التفسير المعتمَدة؛ لتبدِّد نافذة اليقين بضوئها المأمون حُلكة الشكّ والظنون.

---

(١) قاله أبو عمرو بن العلاء أحد القرّاء السبعة. تاريخ دمشق : ١١٣/٦٧ .

صعوبات الدراسة:

لم تخل هذه الدراسة على متعتها من جملة من الصعوبات:

١. هيبة القرآن الكريم، والإشفاق من بخس معانيه الجليلة حقّها .

٢. حساسية الموضوع لتعلّقه بقضايا العقيدة الكبرى، وطبيعته التي تقتضي الغوص في كتب الفلسفة والمنطق التي تتلاطم فيها المذاهب المنحرفة، مع ما يشوب بعض البلاغيِّين والمفسِّرين من مخالفات عَقَديّة، مما يصعب معه التحكُّم بدفّة الصواب إلا بتوفيق العليِّ القدير ﷻ.

٣. تفرُّق أطراف الموضوع، وكثرة مراجعه، وتباين مجالاتها، ما بين العقيدة والبلاغة واللُّغة والأصول والمنطق والتفسير وعلوم القرآن، وإعرابه وغريبه، والجدَل والمناظرة، والإعجاز العلميّ، مما يقتضي فضل تحرٍّ، ومزيد اطِّلاع.

٤. تداخل مصطلحات البلاغة فيما بينها، وبخاصّة علم البديع، فضلاً عن تشابك أساليب الاحتجاج، والتشابُه الكبير بينها، وتضارُب المعلومات أحيانًا، إضافة إلى صعوبة التوفيق بين مفاهيم متباينة بمصطلح واحد في علوم مختلفة، والحرص على أن لا يخرج الموضوع عن المجال البلاغيّ مع محاولة اقتناص ما يعنّ من الجواهر في تلك المناجم الغنيّة.

٥. طول الآيات، واختلاف أطراف الاحتجاج تبعًا لموضع الشاهد، فقد يكون المستدلّ معترضًا، والعكس، خصوصًا إذا كان الحوار فيه قضيّة وردّ، ثم ردّ للردّ، وهكذا.

وبعد، فما كان الإبحار في البلاغة والأصول إلاّ منطلَقًا لرحلة مديدة، وسفر بعيد الشقّة على صفحة البيان الإلهيّ الفذّ، لكنني بفضل ربِّي وتوفيقه ظفرت بأطيب الصيد وأكرم الدرّ، مما لم أكن أحلم به لولا طبيعة هذا الموضوع الممتدّ الضارب في البلاغة والأصول والفلسفة والمنطق وعلوم القرآن، فقد كانت عناية علماء أصول الفقه بقضايا البلاغة وأساليبها في أسفارهم بالغة الأهمِّيَّة، بل كانت جهودهم في بعضها أعلى من جهود البلاغيِّين أنفسهم، وإن اختلف المنهج والغاية والأداة أحيانًا؛ لذا كان تمازج العقلين البلاغيّ والأصوليّ فيه نفع لا يقل عمّا يحقِّقه تناغم أصول البلاغة مع اللُّغة والنقد

والفلسفة[١].

وقد بذلت جهدي للمّ شتات الموضوع من حدائقه المتنوّعة، ولا أدِّعي أنني بلغت الكمال، أو وفيت الموضوع حقّه، وهو يتعلّق بكلام الله ﷻ : ﴿قُل لَّوْ كَانَ ٱلْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّى لَنَفِدَ ٱلْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّى وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِۦ مَدَدًا ﴿١٠٩﴾﴾ [الكهف:١٠٩]، فضلاً عن أنّ أساليب الاحتجاج القرآنيّ متعدِّدة المشارب، ذات أفنان، لها ظلّ ممدود، وفاكهة كثيرة، لا مقطوعة ولا ممنوعة! فإن بحثتَ في البلاغة رأيتَ أرقى الأساليب المعجِزة، وفي السلوك والتربية والدعوة تجدُ فيه النهج الأسمى للأخلاق، والنماذج الرفيعة للاحتجاج والمناظرة، وغير ذلك مما يوقظ الشعور، ويرقى بالفكر.

وأحمد الكريم المنّان الذي يسّر كل عسير أثناء تجوُّلي في رياض العلم الفيحاء بين أئمة السلف الذين ضربوا بسهم وافر في الردّ على المنطقيِّين، ورسم حدود المنهج الإسلاميّ الأسنى في مواجهة أقوالهم، كما وفقني إلى شيخ جليل هو الأستاذ الدكتور محمد بن علي الصامل الذي لم يألُ جهدًا في التسديد والتوجيه من أوّلِ ما سكبه اليراع مذ كان البحث فكرة، حتى استوى على سُوقه. فكثيرًا ما ردّ الأفكار إلى نصابها، وأرشدني عند اشتباه الدروب إلى صوابها، فاللهمّ توله بفضلك، واجزه عني الحسنى وزيادة!

والشكر موصول للقائمين على هذه الجامعة الإمام بعامّة على كريم تعاونهم مع الباحثين، وأخصّ كلِّيَّة اللغة العربيّة، وقسم البلاغة والنقد ومنهج الأدب الإسلاميّ برئيسه ووكيله على جليل متابعتهم، وجميل تعاملهم، فالله أسأل أن يُعظِمَ لهم الأجر، ويمدَّ لهم في طاعته العمر!

وأدعو بالتوفيق لكلّ من وقف في عملي على خلل فأرشد وقوّم، ولا سيما الأستاذين الجليلين المناقشين أ.د محمود توفيق سعد الذي له علي سبق فضل في تتلمذي على مؤلفاته البلاغية المميَّزة، ود أحمد السديس الذي له مني اعتراف بجميل المتابعة، وكريم التعامل مع ما لديه من أعمال في رئاسة القسم، وما حباني به من ثاقب الرؤى في المراحل النهائية لخطة

(١) ينظر : مراجعات في علم المعاني : ٣ .

البحث، وأثنّي كذلك الشـــكر لهـــما على ما بذلا من وقـــت في فحص البحـــث، وعلى ما سيتـــكرّمان به من التسديد والتقويم.

ولا أنسى في مقام الدُّعاء والشُّكر والعرفان والدي الحبيب، رحمه الله، ووالدتي الحبيبة، حفظها الله، ومتَّعها بالصحَّة والعافية، فكم تحمَّلت تقصيري وانشغالي! ومضت بكلِّ حبّ تستحثّني للسير في طريق العلم، وتفيض عليَّ من توجيهاتها، وتحيطني بركات دعائها في كلِّ خطوة أخطوها؛ فاللهمّ اجزهما عنِّي خير ما جزيت والدًا عن ولده.

والشكر بعدُ لزوجي الكريم الأستاذ محمد بن عبد الله العجـــلان على جميـــل دعمـــه، وجليل صبره، ولأبنائي الأحبّاء عبد الله وعبد اللطيف، ردّ الله غربتهما، وخالد وعادل وعبد العزيز، جعلهم الله جميعًا قرّة عين، وبوّأهم أعلى الدرجات في الدنيا والآخرة، كما أزجي صادق الشكر لإخوتي الأعـــزّاء، ولكلّ من قـــدّم لي معـــروفًا أو مشـــورة، أو نبَض قلبه بالدعاء لهذا البحث، والترقّب للحظة جني ثماره، يحدوه إخلاصٌ عليٌّ، وقلبٌ نقيّ؛ فاللهم حقِّق على الخير آمالهم، واجعل جنان الخلد مآلهم.

وأستمطر الرحمات على من ظلّ يترقب هذه الرسالة، لكنّ يد المنون حالت دون رؤيتها، ومنهم العمّ الوالد د.عبد الله بن محمد العجلان عضو مجلس الشورى، وعمتي الحبيبة نوال كردي، وجدتي العزيزة، جعلهم الله ووالدِيهم ووالدِينا في مقعد صدق عند مليك مقتدر!

والحمد لله في الأُولى والآخرة، وأستعين به جلّ في علاه، وأبرأ إليه من حولي وقوّتي إلى حوله وقوته، ضارعة إليه أن يلهمَني الصواب، ويهديَني سواء السبيل، وأصلّي وأســـلِّم على أفصح الناس بيانًا، وأطلقِهم بالخير لسانًا، المؤيَّد بأظهرِ الأدلَّة والبيِّنات، المسدَّدِ بأوضحِ البراهين والمعجِزات.

زينب بنت عبد اللطيف بن كامل الكردي

٢٥/ محرم/ ١٤٣١هـ

الرياض